الأستاذة الدكتورة حـــياة قـــارة
باحثة متخصصة في التراث الأندلسي
جامعة محمد الخامس ـ الرباط ـ أكدال

Arabish fur Fortgeschrittene –
Universitat –Bern - Suisse

عالم العلماء بالأندلس من خلال كتب التراجم

1) الأبعاد الاجتماعيةـ الثقافية والسياسية :

من المعلوم أن لكتب التراجم قيمة كبيرة في استخلاص المادة التاريخية ، ولا تخفى أهميتها في إعطاء صورة صادقة عن عصرما في مستوياته الاجتماعية والثقافية
والدينية ، وفي بعض الأحيان تمدنا بمعلومات فريدة من النواحي السياسية نفتقدها في مظانها الأصلية .
ولقد ارتبط أدب التراجم في الأندلس، بكليته ، بالواقع المحلي ، واستجاب في مضمونه واتجاهه لقوانين التطور السياسي ـ الاجتماعي والثقافي في الأندلس .
وقد كرّست التراجم قبل كل شيء لتلبية احتياجات ومتطلبات المذهب المالكي ، المدرسة الفقهية الرسمية ، ومن هذا المنطلق كان الأمويون يشجعون على تدوين التراجم .

والمؤلفات التي اعتمدناها هنا ، في هذا البحث ، تمثل مرحلة العصر الوسيط، من القرن 4 هـ / 10 م حتى القرن 7 هـ / 13 م ، مرحلة مهدت للتغيرات التي طرأت فيما بعد على الخارطة السياسية بالغرب الإسلامي ، إذ إن التطورات الكبرى التي طرأت على منظومة الوعي الاجتماعي ، خلال هذه المرحلة ، مهدت لنشوء التغيرات الكبرى في فهم دور المعارف التاريخية ، والأثر الذي تتركه على تطور شكل المصادر التاريخية ومضمونها . إنها صيغة كتابية للتعبير عن الوعي التاريخي لدى مؤلفي كتب التراجم .
ومهمتنا استنباط معلومات عن العلماء الذين أسهموا بهذا القدر أوذاك في تكوين المعرفة التاريخية ونقلها داخل الأندلس .
ولقد تجلت خصوصية التطور الثقافي في الأندلس من خلال كتب التراجم التي كانت ، من حيث الاتجاه والمضمون ، نتاجا للوسط المحلي يتطلع إلى تلبية الحاجات المحلية
في المجالات السياسية ـ الاجتماعية والعلمية والثقافية ، وقد تمركز اهتمام المترجمين على المادة المحلية .
فمن جهة اعتبرت مؤلفات التراجم حلقة أساسية وعضوية في مجمل علم التاريخ العربي بشكل عام ، ومن جهة أخرى جسدت اتجاها مميزا في تطور العلوم والمعارف بالأندلس.

ولقد تطلب تصنيف المواد العلمية ظهورتراجم مطابقة لها ، فمثلا من أجل تطوير علوم القرآن ، كان لابد من ظهور مؤلفات خاصة بتراجم مقرئي القرآن ، ولقد خصص لهم العالم الشهير المتخصص في أحكام التجويد أبو عمرو الداني(ت 444 هـ / 1048 م) مصنفه كتاب" تأريخ طبقات المقرئين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين " .

كما تركز الاهتمام الأساسي على الفقهاء والمحدثين ، حيث خصص لهم عدد كبير من كتب التراجم التي كانت ضرورية عند دراسة وتدوين الأحاديث الدينية ، ومذهب الفقه المالكي . وقد اعتبرت هذه التراجم مداخل إرشادية للأسانيد التي اعتمدت في رواية الأحاديث ، وقد قام بتأليفها الفقهاء والمحدثون أنفسهم .

كماخصصت للقضاة تراجم خاصة بهم ، تكشف عن الدور الكبير الذي لعبه القضاء في البلاد ، مثل كتاب القضاة للحوشاني (ق 4 هـ / 10 م) وهو نموذج لممارسة القضاء بالأندلس ، فضلا عن أن مادة التراجم فيه ، تتضمن معلومات عن الجوانب الاجتماعية في حياة العاصمة الأموية قرطبة ، وكذلك كتاب " قضاة قرطبة " لمحمد بن حارث الخشني (ق4 هـ / 10 م) ، يعرفنا فيه على نماذج من كلام الأندلسيين المسلمين من أهل قرطبة بعجميتهم ، كما أن الروايات الواردة في الكتاب تعين على دراسة المظاهر الاجتماعية بقرطبة في العصر الأموي .

أما فيما يتعلق بالفقهاء والكتب الفقهية ، فقد خصص لهم عدد كبير من مجموعات التراجم التي كانت ضرورية لدراسة الفقه المالكي ، وتؤكد التراجم الخاصة بالفقيه الأندلسي يحيى بن يحيى الليثي (ق 4 هـ / 10 م) أن مجلسه كان يضم أكثر من خمسمائة شخص ، يستمعون لمحاضراته حول " الموطأ " للإمام مالك بن أنس .

والملاحظ أن الدور المميز الذي لعبته النظم الفقهية في الحياة الاجتماعية ، أدى إلى ظهور نوع خاص من قصص الوعظ الأخلاقية عن الصالحين والنسّاك والوعّاظ والزهّاد ، فأصبح جمع وتدوين مثل هذه الأخبار مجديا في مادة التراجم .

وفيما يخص الشعر ، نلاحظ أن تطور الإنتاج الشعري في الأندلس ، ساعد على نشوء الاهتمام بسير الشعراء ، كما تحتفظ كتب التراجم بأشعار سياسية ـ حماسية نظمت حول الانتفاضات المتكررة في المناطق، ضد الحكم الأموي ، وكذلك ضد بعض الآراء السائدة في عصر المرابطين (5 هـ / 11 م) .

ونتيجة لذلك ، ظهرت مصنفات متخصصة لكل فئة من العلوم ، والجهات والأقاليم .

فانتشر تأليف مجموعات التراجم الأدبية المكرسة لشعراء الأندلس ، مثل " طبقات الشعراء بالأندلس" لعثمان بن ربيعة (ت 310 هـ / 914 م) ويضم تراجم تشمل أخبارا عن شعراء مرحلة الفتح الإسلامي بالأندلس .

كما كان لنظام الحكم البيروقراطي كتّابه الذين أرخوا لطبقة الموظفين الكتّاب ، والمسؤولين الكبار من الوزراء والحجّاب ، مثل كتابي عيسى الرازي (ت 379 هـ /983 م) : " تاريخ الوزراء والوزارة " و " كتاب حجّاب الخلفاء بالأندلس " .

كما خصصت للغويين والنحويين مؤلفات خاصة بهم ، من بينها " طبقات النحويين و اللغويين للزبيدي (ق4 هـ / 10 م) ، وهو مصدر أساسي لدراسة تشكل وتطور العلوم الإسلامية في الأندلس بشكل عام ، وتطور المعلومات التي جمعها الزبيدي بشكل خاص ، كما تكشف عن الدور الريادي الذي لعبه الشرق في تكوين الثقافة العلمية في الأندلس .

وتتنوع منهجية التراجم بالعلماء ، فنلاحظ توجه اهتمام بعض المؤلفين نحو البلدان ، فيخصصون لأعلامها تراجم خاصة بهم ، مما أسهم في تتبع الخريطة الثقافية بالأندلس انطلاقا من

الموقع الجغرافي ، إذ ركز أصحابها على دراسة الحياة الثقافية للمدينة وأرباضها ، مثل :" أدباء مالقة " لعبد الله بن عسكر وأبي بكر بن خميس (ق 7 هـ / 13 م) "وتاريخ فقهاء طليطلة" لأبي جعفر بن مطاهر (ق 5 هـ / 11 م) و "شعراء إلبيرة " لمطرف الغساني (ق 4 هـ / 10 م) ، و "فقهاء ريّو " لابن سعدان (ق4 هـ / 10 م) ، و "الإحاطة في أخبار غرناطة "لابن الخطيب (ت 776 هـ / 1380 م) .
هذه المنجزات التي حققتها كتب التراجم خلال العهد الأموي (2 هـ / 8 م - 4 هـ / 10 م) ساعدت على إغناء الثقافة المحلية ، حيث شهدت المرحلة طور التكوين الذي سيتطور فيما بعد إلى النضج والتفاعل مع الثقافة الإسلامية في المشرق . ويعتبر التواصل في نقل الثقافة الإسلامية الشرقية إلى أراضي الأندلس مظهرا من مظاهر توحيد الثقافة الإسلامية برمتها .

وقد قدم ابن الفرضي نماذج ثقافية متعددة تعكس صور المثاقفة بين الشرق والغرب الإسلامي ، من بينها عبد الملك بن حبيب الذي كانت تعتبر مؤلفاته شاهدا على العلاقات الثقافية الوثيقة بين الأندلس والشرق الإسلامي ، ويحدد ابن الفرضي عدد المدن و الأقاليم التي درست فيها كتبه ، وهي إحدى عشرة مدينة وبلدة ، من بينها : قرطبة وإشبيلية وتدمير ...
وقد لعب الشرق دورا بارزا في التعاون المتبادل بين سائر مناطق العالم الإسلامي ، وفي تبادل الثقافة العربية في إطارها العام .

وتشكل الرحلة إلى الشرق لطلب العلم عنصرا هاما ورئيسا في المنظومة الإسلامية بشكل عام ، وفي التاريخ الثقافي بالأندلس بشكل خاص ، وتحدثنا كتب التراجم عن عودة العلماء إلى بلدهم بعد رحلة استغرقت عقود من الزمن ، واكتسبوا المعارف العلمية التي أصبحت مادة يدرسها جمهور واسع من الناس .
لكن هناك فئة من العلماء فضلت البقاء في المشرق ، أوفي مناطق أخرى في العالم الإسلامي ، مثل حالة العالم محمد بن صالح المعافري (ق 3 هـ / 9 م) الذي استقر بآسيا الوسطى : بخارى وسمرقند ، وحمل معه ثقافته الأندلسية ، ووضع كتابا في تراجم علماء الأندلس سمعها منه تلميذه عبد الرحمان الإدريسي بسمرقند .(انظر تاريخ ابن الفرضي 2 / ص 91 -92 ، والتكملة لابن الأبار رقم 372).

ويمكن أن نقول إن الأندلس نموذج للتطور المحلي للثقافة العربية الإسلامية ، هذه الثقافة التي استعارت من المشرق الملامح الرئيسة ، والعناصر الجوهرية المؤسسة للثقافة الإسلامية ، فتفاعلت مع التيارات المحلية الأصيلة ، واكتسبت ملامحها المميزة وخصوصياتها خلال تكيفها مع ظروف الوسط الجديد ، وأصبحت ثقافة إسبانية- عربية في مضمونها .

2) البعد السياسي ـ الثقافي من خلال كتب" المناقب"
(كتب التراجم الخاصة بالصالحين والنساك والعبّاد) :

النموذج الذي نقدمه هنا، متعلق بمدينة فاس والبوادي المتعلقة بها في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، وفيه تصور لماهية التصوف المغربي ـ الأندلسي ، والتحامه بالمجتمع ، ودوره على صعيد الأفكار والعقليات ، وعلى صعيد التاريخ الاجتماعي ككل .
ومن المؤكد أن التصوف كان من أبرز عناصر الحساسية الدينية داخل المجتمع المغربي وأحد أهم

مقوماته الدينية والروحية والثقافية ، والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، إذ يعد من أبرز عناصر التراث الإسلامي التي كان لها تأثير عميق في مجرى الحياة اليومية للأندلسيين ومغاربة العصر الوسيط ، وتاتي كتب المناقب على رأس هذا النوع من المصادر التاريخية التي تمدنا بمعلومات قيّمة ودقيقة عن بعض القضايا العميقة للمجتمع التي أبقتها المصادر الإخبارية في الظل .
إنها تكشف عن علاقة السلطة بالمتصوفة التي كانت على الدوام ، علاقة متوترة موسومة بالحذر والتربص والمراقبة ، كما تذكر حالات من القمع الرسمي التي كانت وسيلة من بين الوسائل الأخرى، لخنق أنفاسهم والقضاء على شعبيتهم، ونذكر من بين هذه الحالات التي تعرضت للإضطهاد والامتحان : ابن مسرة في العصر الأموي ، وابن برجان وابن العريف في العصر المرابطي ، إنها نماذج شاهدة على هذا التجاذب المستمر بين السياسة الرسمية ونشاط المتصوفة .

3) دور المرأة في تشكيل الثقافة الإسلامية بالأندلس :

تمتعت المرأة في المجتمع الأندلسي ، حسبما تسجله كتب التراجم ، بقسط وافر من الحرية والنفوذ ، كما حظيت باحترام وتقدير كبيرين داخل المجتمع .
فهي تخبرنا بمشاركة المرأة الأندلسية في الحياة الثقافية ـ الاجتماعية ، ونذكر هنا الندوات الثقافية التي كانت تشارك فيها المرأة بجانب الرجل ، أو الندوات الخاصة بالنساء ، من بينها الندوات الشعرية التي كانت تعقدها الشاعرة ولادة بقرطبة (ق 5 هـ / 11 هـ) ، فتجري بينهن المساجلات والمحاورات الأدبية ، وهذه الندوات نموذج من نماذج النشاط الثقافي النسائي ذي الطابع الأندلسي ، فضلا عن أنه نموذج لتحرر المرأة الأندلسية .
كما تؤكد كتب التراجم نسبة الشواعر اللواتي كن ينافسن الرجل في نظم الشعر ، وهي نسبة عالية لا تقتصر فقط على الحواضر الكبيرة ، مثل قرطبة وإشبيلية ، وإنما تتجاوزها إلى المدن الصغيرة .
ونذكر من بينهن حفصة الحجارية (ق 4 هـ / 10 م) التي تعد أول شاعرة أندلسية طرقت موضوع الغزل ، وفتحت بذلك هذا الباب على مصراعيه لمن جاء بعدها ، وبخاصة ولادة القرطبية .
ومنهن من حققن نجاحا وامتيازا في ميدان العلم والسياسة والأدب والموسيقى ، وبعضهن تفوقن في رواية الحديث والفقه ، والبعض الآخر تميز في ميدان الطب والعلوم البحتة ، كما تفوقن في ميدان الخط ، وتؤكد كتب التراجم أنه كان بقرطبة وحدها مائة وسبعون امرأة ينسخن القرآن بالخط الكوفي زمن الأمويين (ق 3 - 4 هـ / 9 - 10 م). وهناك أيضا المتأدبات بقصور الخلفاء ، يعلمن الفقه وعلوم الدين والثقافة الأدبية لأبناء الملوك ، مثل حفصة بنت الحاج الركونية التي كانت معلمة لبنات المنصور الموحدي (ق 6 هـ / 12 م) .
وأخيرا لا ننسى الدور السياسي الذي قامت به بعض نساء الخلفاء ، مثل الزهراء حظية عبد الرحمان الناصر (ق 4 هـ / 10 م) الذي بنى لها مدينة باسمها بضواحي قرطبة ، واعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد (ق 5 هـ / 11 م) ، والأميرات المرابطيات ، حيث تسجل كتب التراجم نفوذهن السياسي واستئثارهن بشؤون الدولة .